الجهود اللغوية لأبي العباس المبرد الأزدي من خلال كتابه المقتضب في اللغة

الأستاذ الدكتور عبد القادر شارف
جامعة حسيبة بن بوعلي، شلف- الجزائر.

ملخص المقال

أبو العباس المبرّد شخصية أدبية برزت في القرن الثالث للهجري، شهر بكتابيه الكامل والمقتضب، أخذ علمه عن علماء أجلاء، وعلى رأسهم سيبويه من خلال الكتاب، إذ يعد من الذين يعرفون عويصه وضبط مسائله، واحتل مكانة بارزة مرموقة بعلمه في اللغة بين معاصريه، وشهد له من تأخر عنه بعلمه، وأثنى عليه العلماء، وسنحاول في هذا المقال تناول جهوده اللغوية في كتابه المقتضب.

الكلمات المفتاحية: المبرّد – المقتضب– الجهود– اللغة.

Article summary

Abu al-Abbas El mobareed cooled literary figure emerged in the third century of the month of Hijra, a full and short book, took his knowledge of scientists evacuated, and above them Seabway through the book, as he is one of those who know control issues, He held a prominent position in his knowledge of language among his contemporaries, and saw him from the delay of his knowledge, and praised him scientists, and we will try in this article to address his linguistic efforts in his El mohtadhab book.

key words:El mobareed – El mohtadhab - efforts - language.

يعد المبرِّد واحدا من العلماء الذين تشعبت معارفهم، وتنوعت ثقافاتهم لتشمل العديد من العلوم والفنون، وإن غلبت عليه العلوم البلاغية والنقدية والنحوية، فإن ذلك ربما كان يرجع إلى غيرته الشديدة على قوميته العربية ولغتها وآدابها في عصر انفتحت فيه الحضارة العربية على كل العلوم والثقافات، وظهرت فيه ألوان من العلوم والفنون لم تألفها العرب من قبل.

وتذكر كتب التراجم سلسلة طويلة لنسبه، فهو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان، بن سليمان بن سعد بن عبد الله بن بلاد بن عوف بن أسلم الثمالي، ثمّ ينتهي إلى الأسد بن كان الغوث وهي قبيلة الأزد؛ النحوي الأزدي البصري، كنيته أبو العباس، ولقبه المبرد[1].

ولد في البصرة يوم الاثنين غداة عيد الأضحى، وقد اختلف العلماء في تاريخ ولاته، فقيل إنّه ولد في سنة سبع ومائتين، وقيل سنة عشرة ومائتين[2]، واختلف كذلك في وفاته، فقيل سنة خمس وثمانين ومائتين، وهو الأشهر، وقيل سنة ستة وثمانين ومائتين[3].

وكان أبوه من السروجيين ممَّن يكسح الأرضين، وكان يقال له حيان الشورجي، وأمَّا فيما يخص نشأته وصباه فلم تذكر المصادر عنها شيئا سوى أنَّه "كان جميلا في صباه"[4].

وأمَّا لقبه فهو بضم الميم وفتح الباء الموّحدة، وبالرّاء المشدّدة وبعدها دال مهملة، وهو لقبٌ عرف به، واختلف في حركة الرّاء فقيل: المبرِّد (بالكسر)، وقيل المبرَّد (بالفتح)، وللقبه في كلتا الصورتين سبب يروى، فأمَّا لقبه بكسر الراء، فأشهر ما قيل في سببه أنَّ المازني – وقد كان أستاذه – أعجب به فسمَّاه (المبرّد) بكسر الراء، لأنَّه كان يتصدر حلقة أستاذ، يقرأ عليه كتاب سيبوبه وأبو عثمان جالس في تلك الحلقة كأحد من فيها، يستمع إلى شرح تلميذه الذكي، ولما صنّف المازني كتاب الألف واللام سأل المبرّد عن دقيقه وعويصه، فأجابه بأحسن جواب، فقال له: قم فأنت المبرّد بكسر الرّاء، أي المثبّت للحق، فغيّره الكوفيون وفتحوا الرّاء[5]، ويبدو إنَّ في نسبة القول بفتح الراء إلى الكوفيين تحاملاً واضحاً، إذ أنَّ ما عرف عن علمائنا من أهل الكوفة أو البصرة من علم وورع – وهم علماء اللغة والقرآن قبل ذلك– يتنافى مع الدعوى بأنَّهم قد ينحدروا وينزلقوا إلى التنابز بألقاب غير محبذة، وأمَّا (المبرَّد) بالفتح، فقيل في سببه أنَّ أبا حاتم السجستاني جعله يوماً في غلاف مزملة فارغ حين طلبه صاحب الشرطة لمنادمة ومذاكرة الأمير، فدخل بيته، وفتَّشه فلم يجده وخرج، وعند ذلك صار السجستاني يصفق وينادي على المزملة المبرد المبرد، وتسامع الناس بذلك فلهجوا به[6].

وذهبت خديجة الحديثي إلى ما ذهب إليه الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة محقق كتاب المقتضب من أنّ أبا العباس المبرّد إنَّما عرف واشتهر بهذين اللقبين، واشتهار الشخص بلقبين ليس أمرًا مستبعدذا[7].

أخذ المبرّد علمه عن المازني والجرمي وأبي حاتم السجستاني والجاحظ، وأهم ما اعتمد من مصادر في تلمذته هو الكتاب لسيبويه، إذ يعد من الذين يعرفون عويصه وضبط مسائله، ونقل عن السجستاني أنَّه كان إذا سئل عن الانتفاع بكتاب سيبويه نصح سائله بالذهاب إلى المبرّد[8].

وكان المبرد حسن المحاضرة، فصيحا بليغا، خفيف الرّوح، مليح الأخبار ثقة فيما يرويه، كثير النّوادر فيه طرافة ولباقة [9]، وكان كثير الأمالي[10]، قال أبو بكر بن مجاهد:« ما رأيت أحسن جوابا من المبرّد في معاني القرآن، فيما ليس فيه قول لمتقدّم»[11]، وقال عنه ابن جنّي « يُعدّ جبلا في العلم، وإليه أفضت مقالات أصحابنا، وهو الذي نقلها وقرّرها، وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها»[12].

وتدلُّ كتابات المبرد المختلفة على أنَّه دقيق الحسِّ اللغوي دقة شديدة، أودع كتبه ومصنفاته كثيرا من الملاحظات اللغوية والتعبيرية التي تدل على رهافة حسِّه.

اشتهر المبرد – رحمه الله تعالى– واحتل مكانة بارزة مرموقة بعلمه في اللغة بين معاصريه، وشهد له من تأخر عنه بعلمه، وأثنى عليه العلماء، فقال فيه تلميذه نفطويه: « ما رأيت بأحفظ للأخبار بغير أسانيد منه»[13]، وقال اليوسفي كاتب المأمون: «كنت يوما عند أبي حاتم السجستاني، إذ أتاه شاب من أهل نيسبور، فقال: يا أبا حاتم إنِّي قدمت بلدكم، وهو بلد العلم والعلماء وأنت شيخ هذه المدينة، وقد أحببت أن أقرأ عليك كتاب سيبويه، فقال: الدين نصيحة، إن أردت أن تنتفع بما تقرؤه فاقرأ على هذا الغلام محمد بن يزيد فتعجب»[14]، وقال السيرافي فيه: « كان الناس بالبصرة يقولون: ما رأى المبرد مثل نفسه» [15]، وقال عبد الباقي اليماني فيه: « وكان إماماً في العربية، غزير الحفظ والمادة»[16].

نزل المبرد بغداد وكان إمام وشيخ أهل النحو، واللغة العربيّة في البصرة، وإليه انتهت رياسة النحو بعد طبقة أبي عمر الجرمي، وأبي عثمان المازني، تلقى العلم عن شيوخ عصره فبدأ بقراءة كتاب سيبويه على الجرمي (ت 225 هـ)، وختمه على المازني (ت248هـ)، وأخذ العلم عن جماعة منهم: المازني، والزيادي (ت249هـ)، وأبي حاتم السّجستاني (ت255هـ)، والتوّزي (ت257هـ)، ولم يكتف بالتلقي عن العلماء بل كان يقرأ ما يصل إليه من كتب السّابقين، كما سمع عن الأعراب المشهورين كأمّ الهيثم، وعبد الصّمد بن المعذّل، وأبي دهمان، وعُمارة بن عقيل، وكانت له صِلات بشعراء عصره ومخالطة لهم، وكان يروي عنهم شعرهم، وأخذ عنه جماعة من النحاة التفوا حوله، وأصبحوا فيما بعد شيوخ النحو وأقطابه منهم: الزّجاج والأخفش، وعلي بن سليمان، وأبو بكر بن السّراج، ومحمد بن جعفر الصّيدلاني، وأبو بكر بن الأزهر، وابن كيسان [17]، ودرستويه، والصّولي، ونفطويه النحوي، وإسماعيل الصَّفَّار، وأبو علي الطّوماري، وجماعة كثيرة[18].

وللمبرّد مجالس ومناظرات مع بعض النّحاة، أشهرها تلك التي كان يجريها مع ثعلب، وكان فصيحا بليغا قويّ الحجّة ناقدا لما يتلقّاه من مسائل وآراء نحويّة، وقد ألَّف العديد من الكتب النحوية نذكر منها:

كتاب الكامل في اللغة والأدب [19]، وكتاب الفاضل، وما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد[20]، وكتاب الرّوضة، والمقتضب، وهو محور دراستنا، معاني القرآن، المقصور والممدود، المذكّر والمؤنّث، الاشتقاق، الوافي، إعراب القرآن، نسب عدنان وقحطان، الرّد على سيبويه، شرح شواهد الكتاب، ضرورة الشعر، العروض، طبقات النحويين والبصريين[21]، وغيرها كثير.

ظهر كتاب المقتضب للمبرّد محققاً في أربعة أجزاء ضخمة تحقيقاً ممتازاً، حقَّقه الأستاذ الشيخ الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة (ت1984م) بين سنتي (1963 و1986م) في ست وستين وتسعمائة وألف صفحة مع المقدمة والفهارس، وقد جمع عضيمة في تعليقاته على المقتضب كل ما يتعلق بالمبرد، وحسبه أنَّه ربط مسائل المقتضب ربطًا محكمًا بكتاب سيبويه، بل أنَّه ظلَّ زماناً مفتاحاً لسيبويه قبل أن تظهر فهارسه التي صنعها الشيخ نفسه (22)، ومن أشهر الدارسين المحدثين الذين كتبوا عن المبرّد وآثاره العلمية نجد:

1. الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة في تحقيقه لكتاب المقتضب، وفي كتابه: أبو العباس المبرّد وأثره في علوم العربية الذي طبع سنة 1985م، بعد أن ظلَّ مخطوطاً منذ سنة 1942م.
2. الأستاذ أحمد حسنين القرني وعبد الحفيظ مزعلي في كتابهما: المبرّد وحياته وآثاره، المطبوع سنة 1971م.
3. الأستاذة الدكتورة خديجة الحديثي في كتابها: المبرّد سيرته ومؤلفاته، الذي طبع في بغداد سنة 1990م.

ألف المبرّد كتاب "المقتضب" بآخِرة من عُمره بعد أن اكتملت أدواته العلميّة، ونضجت معارفه، واستوت ثقافته، فهو أنفس مؤلّفاته وأنضجها ثمرةً، وأصدق وثيقة سجّلت آراؤه واتجاهاته، ولو تبارى النحويون لكان آخره جواد يقدِّمه المبرّد إلى السياق(23).

ويمثل المقتضب المذهب البصري خير تمثيل، فهو أقدم ما وصلنا من كتب النحو والصرف بعد كتاب سيبويه(24)، ولئن كان المبرّد يحاول أن ينافس سيبويه فإنّ تأثير الكتاب فيه لا يحتاج إلى دليل (25)، وسمَّاه بالمقتضب إلا أنّ المطلع عليه يلاحظ عدم تطابق الاسم على المسمّى، فهو يتصف بكثرة التحليل والاستطراد وتداخل الأبواب، وغزارة الشّواهد وكثرة الأمثلة، ألَّفه قبل (الكامل) (26)، فلما ألَّف (الكامل) أحال إليه في كل مرة تحدث فيها عن مسائل اللغة، ويقال أنَّ ابن الراوندي الملحد قد رواه، ومن ثمّ لم يكتب له الرّواج (27).

ويمتاز المقتضب بوضوح العبارة، وقد يكون مرجع هذا إلى أنَّ المبرّد نظر في الأدب، والأدب صقال تحتك به العقول فيزول صدؤها وتتعلق به الألسنة فتعذب أسلاتها وتتعرض له الطباع فتلين جوانبها وترق حواشيها، كما يمتاز بكثرة المسائل التطبيقية من خلال أبواب الكتاب(28).

وربما كان هدف المبرّد من تأليفه للمقتضب هو جمع آراء وأقوال مَنْ تقدّمه من العلماء؛ كالخليل، وسيبويه والأخفش الأكبر، والمازني وغيرهم، وبسط آراءه فيه.

إنّ كتاب المقتضب مُرَتَّبٌ على طريقة سيبويه في الكتاب، لم يضع له صاحبه مقدّمة وهو يبدأ بقوله: « هذا تفسير وجوه العربية وإعراب الأسماء والأفعال »(29)، وقد أسرف المبرّد في عناوين أبوابه، فقد بلغت ثمانية وعشرين بعد الثلاثمائة (328) مع وجود تداخل في كثير من الأبواب إلا أنّه كان يؤثر أن تكون « تراجم أبواب كتابه واضحة في إيجاز فلم يصطنع له العناوين المطوّلة أو الخفيّة»(30)، ويضم المقتضب (561) شاهداً، منها في كتاب سيبويه (380) شاهداً، ويؤخذ عليه فيه حملتُه الأثيمة على أصحاب القراءات السبع جرياً على منوال أستاذه المازني في آخر

كتابه: (التصريف) فنقل عنه المبرد هذا الباب وأثبته في المقتضب، فكان ذلك سبب خمول الكتاب.

وإذا تصفحنا كتاب المقتضب للمبرد فإننا نجده يجمع بين دفتيه شواهد متنوعة من القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية الشريفة وكلام العرب وكثير من الأمثلة التي صاغها بنفسه، فقد جمع عمله في هذا الكتاب بين الاستشهاد على صحة القاعدة وجواز التركيب من جانب وتوضيح القاعدة والتطبيق عليها من جانب آخر، وقد استشهد باثنتي عشرة وستمائة (612)آية ، وأربعة (4) أحاديث، وسبعمائة وواحد وخمسين (751) بيتا شعريّا، وبعض كلام العرب منه حوالي اثنين وأربعين ([42]) مثلا.

ولقد عدّ المبرّد ومعاصروه الشاهد القرآني هو الأساس الأول والمصدر الموثوق به في استخلاص قواعد النحو وتثبيتها، وقد حرص على ذكر ما في وسعه من القراءات القرآنيّة، فأحيانا كان ينسب القراءة لصاحبها، وقد ورد ذلك في مواضع كثيرة من كتابه نذكر منها على سبيل المثال قوله في باب الهمز[31]، فإذا كانتا أي همزة التخفيف وهمزة التحقيق في كلمتين فإنّ أبا عمرو بن العلاء كان يرى تخفيف الأولى منهما، وعلى ذلك قرأ في قوله عزّ وجل: ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْراطُهَا﴾[32]، إلا أن يبتدئ بها ضرورة كامتناع السّاكن[33]، وأحيانا كان ينسب القراءة إلى أحد المصاحف المشهورة، ولقد ورث المبرّد عن شيخه المازني هذا الموقف من القراءات فكان يتمسّك بالأصل النّحوي، ويخضع المسموع من الآثار الفصيحة للقواعد، وكان في مواضع كثيرة يعرض القراءات من غير نسبتها إلى أي قارئ.

واشتهر عن المبرد أنَّه من اللغويين الذين يخطّئون القراء، وينسبون قراءاتهم إلى اللحن، وقد صرّح في مواضع كثيرة من كتابه المقتضب بذلك، ومن ذلك نذكر قوله: فأمّا قراءة من قرأ ﴿مَعَائِشَ﴾ من قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا **مَعَايِشَ** وَمَن لسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ﴾[34]، فهمز فإنَّه غلط، وإنَّما هذه القراءة منسوبة إلى نُعَيْمٍ، ولم يكن له علم بالعربيّة، وله في القرآن حروف قد وقف عليها [35]، وأمّا قراءة من قرأ ﴿ثُم لْيَقْطَعَ فَلْيَنْظُرْ ﴾[36]، فإنّ الإسكان في لام (فَلْيَنْظُرْ) جيّد، وفي لام (لْيَقْطَعْ) لحنٌ؛ لأنّ (ثُم) منفصلَة من الكلمة، وقد قرأ بذلك يعقوب بن إسحاق الحضرمي[37].

كما أنَّ كتاب المقتضب حوي العديد من الآراء النّحويّة المهمّة والمعبّرة عن التّوجه البصري للمبرّد، وقد عبَّر أحد اللغويين المعاصرين عن هذا بقوله: «إنَّ كتاب المقتضب فيه الكثير من الآراء اللغويّة والنّحويّة النّافعة، وهو المصدر الأساسي الذي نستطيع على ضوئه معرفة التّفكير النّحوي عند المبرّد، ويساعد في فهم كتاب سيبويه والدّليل على ذلك قراءة نصوص سيبويه التي حرص الشّيخ عضيمة على إثباتها في هامش تحقيقه للمقتضب»[38].

وعلى الرغم من اعتماد المبرد على كتاب سيبويه ومتابعته له في كثير من القضايا والآراء، إلاّ أنَّه استطاع مع ذلك أن يجعل لنفسه منهجه الخاص الذي تناول فيه الموضوعات اللغوية، يقول الرماني:« ذكر كتاب الأصول بحضرة ابن السراج فقال قائل: هو أحسن من المقتضب، فقال أبو بكر: لا تقل هكذا، وأنشد:

وَلَوْ قِيلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَة بِسَعْدِي شَفِيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكْن بَكَيْتُ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي بُكَا بُكَاهَا فَقُلْتُ: الفَضْلُ للمُتَقَدِّمِ» [39].

وصل تأثر المبرد بسيبويه درجة أنَّ كتابه المقتضب قارب أن يكون نسخة من كتاب سيبويه في كثير من المسائل اللغوية، ولم يخرج عن مصطلحات الكتاب إلا قليلا[40]، فالمصطلحات التي وردت عند سيبويه استعملها المبرد كما كان صاحب الكتاب يفعل من قبل، والشواهد على ذلك كثيرة، حيث أنَّه تابعه في بعض المصطلحات التي لم تأخذ شكلها النهائي، فسيبويه يسمي الحرف المتحرك حرفا حيا، فيحافظ المبرد على هذا المصطلح بالرغم من عدم صلاحيته للبقاء، فالحرف عند المبرّد يقصد به الصوت، وهذا المصطلح درج عليه الرعيل الأول من علماء العربية، ذلك لأنَّهم على ما يبدو لم يفرّقوا بينه وبين الصوت على نحو ما يفرّق الدرس الصوتي الحديث بينهما، إذ يشمل الحرف عندهم كل ما سبق، وقد نعى فريق من المستشرقين على سيبويه (-180هـ) وسواه من علماء العربية استخدام الحرف الذي يتخذ تعبيراً عن الرمز المكتوب ولما يسمع، وعدوا هذا مجانبةً للدقة إلاّ أنَّنا نجد فريقاً آخر من علماء العربية قد فرَّق بين الحرف والصوت فعرَّف مصطلح كل منهما، منهم ابن جني (-392هـ) بدلالة قوله:« اعلم أنّ الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً»[41].

ولم يفرق المبرّد بين مصطلحي الحرف والصوت بل جاء بالحرف وهو يعني به الصوت في المباحث الصوتية التي وجدت في كتابه المقتضب [42].

وقد خالف المبرد علماء العربية القدماء في عدد الحروف الأصول ومخارجها، وهي عند أغلبهم تسعة وعشرون حرفاً وعلى رأسهم الخليل بن أحمد الفراهيدي، وقد رتّب أبواب معجمه العين بعددها[43]، وتبعه سيبويه[44]، والنهج الذي سار على نمطه، وعدَّها أبو العباس المبرد ثمانية وعشرين حرفا، إذ أسقط الهمزة لأنَّها لا تثبت على صورة واحدة [45]، وهذه الحروف هي: **(هـ، ا ، ح، ع ، خ، غ، ق، ك، ش، ج، ض، ل، النون المتحركة، النون الساكنة، ر، ط ، ت ، د، س، ص، ز، ظ ، ث، ذ، ف، و، ب، م)** [46].

ويبدو أنَّ المبرد قد ناقض نفسه، فإنَّه عندما ذكر الحروف التي لها صور ذكر أنَّها ثمانية وعشرون حرفا، وأسقط الهمزة، وعندما وزَّعها على مخارجها ذكر أنَّها من أقصى الحلق [47]، والأصوات الحلقية عند المبرّد سبعة كما هي عند سيبويه[48]، وهي من مخارج ثلاثة: أقصى الحلق، والحلق، وممَّا يلي الحلق وهو أدنى إلى الفم [49]، وهي على الترتيب: **(ء، هـ، ا، ح، ع، خ، غ)**، قال ابن عصفور:« والذي ذهب إليه أبي العباس المبرد فاسدٌ، لأنَّ الهمزة لو لم تكن حرفا لكان (أَخَذَ)، و(أَكَلَ) وأمثالها على حرفين، وهذا باطل، لأنَّ أقل أصول الكلمة ثلاثة أحرف فاء، وعين، ولام»[50].

وأضاف المبرد إلى الحروف الأصول الثمانية والعشرين التي لها صور حروفا أخرى فروع وأصلها من التسعة والعشرين، وهي حروف جارية على الألسن، مستدل عليها في الخط بالعلامات، وموجودة في المشافهة [51]، وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار لتصير خمسة وثلاثين حرفا، وهي **الهمزة بين بين، الألف الممالة، وألف**

التفخيم، والحرف المعترض بين الشين والجيم، والحرف المعترض بين الزاي والصاد، والنون الخفيفة) [52]، وتكون اثنان وأربعون حرفا بحروف غير مستحسنة، وهي: (**الكاف التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالتاء، والباء التي كالفاء**)[53]، وهو هنا موافق لقول من سبقه مثل سيبويه، بدلالة قول سيبويه: « تكون هذه الحروف خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هنّ فروع وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة، يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهي النون الخفيفة، والهمزة بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي كالزاي، وألف التفخيم ... وتكون أثنين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة، ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته»[54].

وقد تابع المبرّد سيبويه في استعماله لمصطلح مخرج في باب مخارج الحروف وعددها[55]، والمخرج أو المدرج هو النقطة التي يتم عندها الاعتراض في مجرى الهواء والتي يصدر الصوت فيها، للدلالة على مواضع خروج الصوت[56]، وعدد مخارج الحروف في كتاب المقتضب ستة عشر مخرجاً[57]، كما هو الحال عند سيبويه[58]، فالمخرج الأول عند المبرد هو الحلق – وقد أشرنا إليه آنفا–، والمخرج الثاني هو الفم الذي يقابله عند سيبويه مصطلح اللسان وهو مخرج (القاف، والكاف، والشين، والجيم) على الترتيب، من أول مخارج الفم مما يلي الحلق من مخرج الجيم، وإطلاق المبرّد لمصطلح الفم على مخرج هذه الأصوات[59]، وهو يشمل اللهاة والطبق والغار، وهو لباقي الحروف عدا الشفوية، والمخرج الثالث يكون من الشفتين، وحروفه هي(الفاء، والواو، الباء، والميم).

وعليه يكون ترتيب الحروف بحسب المخارج عند المبرّد كالآتي: (ء، هـ، ا، ح، ع، خ، غ، ق، ك، ش، ج، ض، ل، النون المتحركة، النون الساكنة، ر، ط ، ت ، د، س، ص، ز، ظ ، ث، ذ، ف، و، ب، م).

.والملاحظ أنّ المبرّد قد تابع سيبويه في التفريق بين النون المتحركة والنون الساكنة الخفيفة، وإن كان بالإمكان جعلهما من مخرج واحد لتقاربهما، إذ تلي النون الخفيفة النون المتحركة، وبهذا يكون ترتيب الأصوات في المخرج الواحد قد جاء مختلفا عند المبرّد مع بقاء الاتفاق في المخرج الأول قائما، وقد كان المبرّد دقيقا في ترتيب مخارج الحروف وترتيبها داخل المخرج الواحد.

كما أنَّ حديثه عن صفات الحروف جاء مجملا، إذ ذكر صفات الحروف وهي: الرخاوة، والشدة، والهمس، والجهر، والقلقلة، والتفخيم، والإمالة، والتكرير، ولم يصرح في أثناء حديثه عن صفات الحروف بصفات أخرى اكتفى بذكرها في مواضع سبقت من حديثه عن مخارج الحروف كالغنّة والتفشي، ومن ذلك قوله:« فأما الحروف المهموسة فنبدأ بذكرها، وهي عشرة أحرف: هـ، ح، خ، ك، ص، ف، س، ش، ت، ث»[60]، وحروف الجهر هي ما سوى الحروف المهموسة، وعن الأصوات الرخوة قال المبرّد: « فأمَّا الرخوة فهي التي يجري النفس فيها من غير ترديد»[61]، محدثة نوعاً من الصفير أو الحفيف تختلف نسبته تبعاً لنسبة ضيق المجرى، وهي عنده: «س، ش، ز، ص ، ض ، وأضاف: وكل ما وجدت فيه ما ذكرت لك »[62]، وهي ثلاثة عشر حرفاً سوى حروف الشدة الثمانية، كما أنَّ الشدة هي أن يحبس الهواء الخارج من الرئتين حبساً تاماً في موضع من المواضع فيضغط الهواء ثم يطلق سراح المجرى الهوائي فجأة فيندفع الهواء محدثاً صوتاً انفجارياً وجمعت في عبارة: (أجدك قطبت)[63].

أما الاستعانة عنده فهي من صفات الحروف وفسَّرها بأنَّها أصوات شديدة استعانت بما جاورها من الرخوة فظهرت معترضة بين الرخوة والشديدة[64]، واصطلاح بين الشدة والرخاوة من مصطلحات سيبويه[65]، كما ذكر المبرد صفات أخرى كالتكرير والقلقلة واللين، والإمالة، وكلها مصطلحات سيبويه استقرت عند المبرّد في تعريفه لها.

ومن بين آرائه الصرفيّة التي وردت في المقتضب تصغير الترخيم، الذي عرَّفه فقال: «وهو أن تصغر الاسم على حذف الزوائد التي فيه فإن لم تكن فيه زائدة صغرته بكماله»[66]، وقد أتى المبرد بأمثلة على ذلك كقولك في حارث: حُريث، وفي محمد: حُميد، وكذلك أحمد، وفي تصغير سرحوب سُريحب؛ لأن الواو فيه زائدة، وكذلك لو حقرت عجوزًا لقلت: عُجيزة؛ لأنَّك إذا حذفت الواو بقيت على ثلاثة أحرف فسميت بها المؤنث، والمؤنث إذا كان اسماً علماً على ثلاثة أحرف لحقته الهاء في التصغير وذلك قولك في هند: هُنيدة، وفي شمس: شُميسة، فإن لم تسم بعجوز، وتركتها نعتاً قلت: عجيز، كما تقول في خلق إذا نعت به المؤنث: خليق[67].

ومن آراء المبرد الصرفية التي خالف فيها أستاذه سيبويه لا يكون (فعَلَ يَفْعَل) إلا أن يعرض له حرف من حروف الحلق في موضع العين أو اللام، يقول المبرد: « وإن عرض فيه حرف من حروف الحلق جاز أن يقع على (فعَلَ يَفْعَل)، وذاك إذا كان الحرف من حروف الحلق عينا أو لاما، فأمَّا العين فنحو: ذَهَبَ يَذْهَبُ، وطَحَنَ يَطْحَنُ. وأمَّا موضع اللام فصَنَعَ يَصْنَعُ وقَرَأَ يَقْرَأُ»[68].

ومن بين القضايا النّحويّة المهمة التي وردت في كتاب المقتضب للمبرد حديثه عن **الجملة**، فهذا المصطلح استعمل لأول مرة في هذا الكتاب، حين قال: «وإنَّما كان الفاعل رفعا لأنَّه هو والفعل **جملة** يحسن عليها السّكوت، وتجب بها الفائدةُ للمخاطب»[69].

ومن القضايا النحوية الأخرى الضرورة الشّعريّة، فالمبرّد يرى في كتابه المقتضب أنّها تردّ الأشياء إلى أصولها، وكثيرا ما كان يصرّح عقب شرحه لمسألة من المسائل بقوله: «ولو اضطرّ شاعر لردّه إلى أصله كردّ جميع الأشياء إلى أصولها للضّرورة»[70].

ومن القضايا النحوية الهامة كذلك نجد حروف البدل، وهي –عنده– أحد عشر حرفاً، منها ثمانية من حروف الزوائد، وثلاثة من غيرها، وهذا البدل ليس ببدل الإدغام الذي تقلب فيه الحروف ما بعدها[71]، ومن حروف البدل حروف المد واللين المصوتة، وهي الألف، والواو، والياء.

فالألف تكون بدلاً من كل واحدة منهما؛ وتكون بدلاً من التنوين المفتوح ما قبله في الوقف؛ نحو: (رأيت زيدا)، ومن النون الخفيفة، لأنها كالتنوين إذا انفتح ما قبلها؛ تقول: (اضربن زيدا) فإذا وقفت قلت: (اضربا)، وفي قوله: "لنسفعن بالناصية" والوقف "لنسفعا".

والواو تكون بدلاً من الألف الزائدة في فاعِل، وفاعِلة، في التصغير والجمع؛ كقولك: (ضُوَيرب، وضَوارب)، ومن الهمزة إذا انضم ما قبلها، وكانت ساكنة؛ نحو: (جؤنة ولؤم)، ومن الهمزة المبدلة لالتقاء الهمزتين في التصغير والجمع، وذلك قولك في (آدم: أُوَيْدِم، وأَوادِم)، وتكون بدلاً من الياء إذا انضم إلى ما قبلها وكانت ساكنة؛ نحو قولك: مُوقِن، ومُوسِر؛ لأنها من أيقنت، وأيسرت، فإن تحركت، أو زالت الضمة رجعت إلى أصلها؛ تقول: (مَيَاقِن،

ومَياسِر)[72].

والياء تكون بدلا من الواو إذا انكسر ما قبلها وهي ساكنة، وذلك قولك: (ميزان، وميعاد، وميقات)؛ لأنَّه من وزنت، ووعدت، ومن الوقت، فإن زالت الكسرة، أو تحركت رجعت إلى أصلها، وذلك قولك: (مَوَازِين، ومَوَاعيد، ومواقيت)[73].

وتبدل من الواو إذا كانت رابعة فصاعدا؛ نحو: (أغزيت، واستغزبت، وغازيت)، وتبدل مكان أحد الحرفين إذا ضوعفا في مثل قولك: (دينار، وقيراط)، فإنَّما الأصل تثقيل النون والراء[74].

وأمَّا الهمزة فإنَّها تبدل مكان كل ياءٍ، أو واو تقع طرفا بعد ألف زائدة، وذلك قولك: (سَقَّاءٌ، وغزَّاءٌ)، وتبدل مكان إحدى الواوين إذا التقيا في أول كلمة، وذلك قولك في تصغير (واصل: أويصل) وكذلك تصغير (واعِد: أويعد)[75].

والتاء تبدل من الواو والياء في مفتعل وما تصرف منه؛ نحو: (متعد، ومتزن، ومتبس من اليبس)، فهذا موضعها فيها، وتبدل من الواو خاصة في قولك: (تراث)، إنَّما هو من ورثت، وتجاه فعال من الوجه، وكذلك تخمة، وتكأة فعلة[76].

والهاء فتبدل من التاء الداخلة للتأنيث؛ نحو: (نَخْلَة، وتمرة)، إنَّما الأصل التاء والهاء بدل منها في الوقف.

والميم تبدل من النون إذا سكنت وكانت بعدها الباء، نحو قولك: (عنبر، ومنبر، وشنباء)[77]، والنون تكون بدلا من ألف التأنيث في قولك: (غضبان، وعطشان)، إنَّما النون، والألف في موضع ألفى حمراء، ولذلك لم تقل، (غضبانة، ولا سكرانة)؛ لأنَّ حرف تأنيث لا يدخل على حرف تأنيث، فكذلك لا تدخل على ما تكون بدلا منه[78].

فهذه ثمانية أحرف من حروف الزوائد، أمَّا الثلاثة التي تبدل وليست من حروف الزوائد فأحدها: الطاء، وهي تبدل مكان التاء في (مُفتْعل)، وما تصرف منه إذا كان قبلها حرف من حروف الإطباق، وحروف الإطباق (الصاد، والضاد، والطاء والظاء)، وذلك قولك: (مُصْطبر، ومضطَّهد، ومظلم) وهو مفتعل من الظلم.

ومنهن الدال، وهي تبدل مكان التاء في (مفتعل)، وما تصرف منه إذا كان قبلها حرف مجهور من مخرجها، ومما يدانيها من المخرج ؛ نحو الذال، والزاي، وذلك قولك في مُفْتِعل من الزين: (مزدان)، ومن الذكر: (مذَّكر).

والحرف الثالث الجيم وهي تبدل مكان الياء المشددة في الوقف للبيان، لأنَّ الياء خفية، وذلك قولك: (تَميمِجّ في تيمي)؛ و(عَلِجّ أي علىّ)[79].

وقد اهتم المبرد – أيضا- بالتعريف بالعوامل والمعمولات، أمَّا التعريف فقد اتخذه من فاتحة كل باب من أبواب كتابه المقتضب، من ذلك تعريفه للاسم وبيان العلامات التي تدل عليه بقوله: « الاسم ما كان واقعا على معنى نحو: رجل وفرس وزيد وعمر وما أشبهه ذلك، وكل ما دخل عليه حرف من حروف الخفض، فهو اسم، فإن امتنع من ذلك فليس باسم»[80].

والعوامل له فيها بعض الآراء المتناثرة، منها أنَّ العامل في النعت والمنعوت، وفي عطف البيان متبوعة وفي التوكيد المؤكد، وكان سيبويه يذهب إلى أنَّ الواو التي يجرُّ بعدها المبتدأ المنكر إنَّما هي واو العطف، والمبتدأ يكون مجرورا بربَّ المحذوفة في (وويلٌ كموج البحر أرخى سدوله)، أمَّا المبرد فذهب إلى أنَّها ليست عاطفة، بل هي حرف جر، وكان يسمي الحركات وأخواتها فاعلا ومفعولا(81).

وتكثر آراؤه في المعمولات، ومن ذلك: أن الأخفش كان يذهب إلى أنَّ (مذ) و(منذ) حين يليهما اسم مرفوع في مثل: (مذ يوم الخميس) و(ومذ يومان) يكونان طرفين مخبر بهما عمَّا بعدهما، وذهب المبرد إلى أنَّهما مبتدآن وما بعدهما خبر، وكان جمهور البصريين يذهب قبله إلى أنَّ اسم لا النافية للجنس إذا كان مثنى أو جمع مذكر ركب معهما وبنى كما بني مفردها، وذهب المبرد إلى أنَّ اسمها حينئذ يكون معربا، لأن لم يعهد فيهما التركيب مع شيء آخر، وقال إنَّه لا يوجد في كلام العرب مثنى وجمع مبنيان(82).

لقد اعتمد المبرّد – كغيره من علماء عصره– في تأصيله قواعد النحو ووضع أسسه على السّماع، والقياس، والتعليل؛ فالسّماع عندهم يعني النّقل المباشر عن القراء والرّواة، وعلماء اللغة العرب الذين يوثق بفصاحتهم، وكان المبرّد ينقل شواهده عن الأعراب بطريقتين:

أ– عن طريق شيوخه الذين نقل عنهم اللغة: كالجرمي، والمازني، والسّجستاني، فأحيانا كان يصرّح باسم الشّيخ الذي ينقل عنه (83)، وأحيانا لم يكن يصرّح بذلك(84).

ب– أمّا الطريقة الثانية فكانت، طريق مشافهة الأعراب مباشرة أو السّماع على من شافههم، وقد ساعده الجوّ الثقافي البصري على لقاء الأعراب وسماع القصائد والأبيات، واستنباط القواعد منها وبناء الأصول النحويّة وتثبيتها، فكان يقول: «وممَّا يؤكد ذلك السماع قول الأصمعي، فيما حدّث به علماؤنا إنّ أعرابيا سمع كلام خلف الأحمر، فقال: يا أحمر؛ إنّ عندك لأساوى فقلب الياء واوا، وأخرجه مُخْرَجَ صحراء وصحارى فكلّ مقلوب فله لفظ» (85)، وقد أورد شوقي ضيف أمثلة كثيرة تبين مدى تمسّك المبرّد بالسماع إذ يقول: « فالأساس عند المبرّد هو السّماع أوّلا، إذ القياس إنَّما يستمدّ منه ويعتمد عليه»(86)، فهذان المصدران هما اللذان كانا يمدّان المبرّد بالشواهد اللغويّة المتنوّعة.

وقد احتكم أبو العباس المبرّد إلى القياس، ولكنه لم يكن يقدّمه على السماع عن العرب، بحيث يرفض ما ورد على ألسنتهم فقد كان يرد ما يخالف الكثرة الكثيرة الدّائرة في أفواههم، ولكن حين لا توجد هذه الكثرة كان يفسح المجال للقياس، وكذلك كان يفسح له حين يشيع استعمالٌ بين العرب، وليس معنى ذلك أنّه كان يقيس على الشّاذ والنّادر، إنّما كان يقيس على ما سمع كثيرا قائلا: « إذا جعلت النّوادر والشّواذ غرضك، واعتمدت عليها في مقاييسك كثرت زّلاتك»(87)، وقد اقتصر كغيره من البصريين على جواز القياس على المشهور الشّائع وأبى القياس على القليل النّادر.

وصفوة القول: إنَّ لجهود أبو العباس المبرد اللغوية من خلال كتابه المقتضب يكمن في أنَّ الرجل وقف حارسا أمينا على مصطلحات سيبويه ليحفظ المصطلح النحوي البصري الذي تضافرت جهود أئمة النحو على صناعته، وتقدمت به البصرة خطوات كبيرة لا يزاحمها شرف هذه المسؤولية، وحرص أبي العباس الشديد على المحافظة على هذه المصطلحات لا يعني بالضرورة أنّه مقلد سيبويه في كل شيء، بل إنَّه قد ساهم في تطور الدرس اللغوي بآرائه الصوتية والصرفية والنحوية بعده.

الهوامش البحث

(1) وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت (د.ت)، ج4، ص313.

(2)المصدر نفسه، ج4، ص313.

(3) نفسه، ج4، ص313.

(4) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ط1 صيدا بيروت، بيروت (د.ت)، ج1، ص269.

(5) ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، رجعته وزارة المعارف العمومية، دار المأمون، الطبعة الأخيرة ، (د.ت)، ج7، ص137.

(6) ينظر: وفيات الأعيان،ابن خلكان، ج4، ص321.

(7)المقتضب، المبرّد، تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب (د.ط)، 1963 م، ج 1 ، ص 14من مقدّمة التحقيق.

(8) ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، دار المعرفة، بيروت–لبنان، (د.ط–د.ت)، ج1، ص108.

(9) ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج7، ص137.

(10) ينظر: وفيات الأعيان،ابن خلكان، ج3، ص314.

(11) ينظر أخبار النحويين، لأبي طاهر المقرئ ، مكتبة المشكاة الإسلامية دط، دت ص28 .

(12) سرّ صناعة الإعراب، ابن جنّي، تحقيق محمد حسن إسماعيل،وأحمد رشدي شحاتة عامر، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان ط1 ، 1421هـ 2000 ج 1 ص1 .

(13) بغية الوعاة، ج 1 ص 269.

(14) طبقات النحويين والبلاغيين، ص 101.

(15) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، ج1، ص270.

(16) نفسه، ج1، ص269.

(17)المقتضب، المبرّد، ج1 ص 34 من مقدّمة المحقق.

(18)نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لأبي البركات كمال الدين بن الأنباري ، تحقيق إبراهيم السّامرّائي مكتبة الأندلس بغداد، ط2 تشرين الثاني 1970 م، ص164 ، وينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، االسيوطي، ج1، ص269.

(19)دروس في المذاهب النحويّة، عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعيّة(، 1992 م،ص 62 وما بعدها.

(20) ينظر: المقتضب، المبرّد، ج1 ص54-66 من مقدّمة المحقق.

(21) ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، االسيوطي، ج1، ص270.

(22) ينظر: الأشباه والنّظائر في النحو للسّيوطي، تحقيق عبد العال سالم مكرم ، مؤسّسة الرّسالة ،بيروت ط1، 1985م، ج5 ص124 .

(23)أبو العباس المبرّد وأثره في علوم العربية، محمد عبد الخالق عضيمة، مكتبة الرشد- الرياض 1949، ص127.

(24) ينظر: المقتضب، المبرّد، ج1 ص7 من مقدّمة المحقق.

(25) ينظر: دروس في المذاهب النحوية ، عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعيّة، مصر، (د.ط)، 1992م، ص63 .

(26) ينظر: المقتضب، المبرّد، ج1 ص7 من مقدّمة المحقق.

(27)تاريخ الأدب العربي ، لكارل بروكلمان ، وأشرف على ترجمته ، محمود فهمي حجازي) الهيئة المصريّة العامّة للكتاب1993 ، القسم الأول ج2 ، 1 ص488 .

(28)أبو العباس المبرّد وأثره في علوم العربية، محمد عبد الخالق عضيمة، ص134.

(29)المقتضب، المبرّد، تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، ج1 ص 67 من مقدّمة المحقق.

(30)المقتضب، المبرّد ، ج1 ص 68 من مقدّمة المحقق.

(31) نفسه، ج 1، ص 292.

(32) سورة محمد، الآية: 18

(33)المقتضب، المبرّد، ج 1، ص 295.

(34)الحج: 15.

(35)كلام المبرّد هنا مأخوذ ممّا قاله المازني في تصريفه وهو : فأما قراءة من قرأ من أهل المدينة « مَعَائِشْ » بالهمز فهي خطأ، فلا يلتفت إليها؛ وإنما أُخِذت عن نافِع بن أبي نُعَيْم، ولم يكن يدري ما العربيّة، وله أحرف يقرأها لحنا نحوا من هذا، وقد قالت العرب « مصائب» فهمزوا ، وهو غلط، ينظر المنصف شرح الإمام أبي الفتح ابن جنّي لكتاب التصريف للمازني، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت-لبنان، ط1 ، 1999م، ص 261 ، وهي قراءة شاذّة.

(36)الحِجر: 20.

(37)المقتضب، المبرّد، ج 2، ص 135 بتصرف.

(38) ينظر: مصادر التراث النّحوي، محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعيّة، مصر، (د.ط)، 2003م، ص149

(39)المقتضب، المبرّد، ج1 ص 70، وأبو العباس المبرّد وأثره في علوم العربية، ص127.

(40)المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري لعوض أحمد القوزي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ط1، 1981، ص156.

(41) سر صناعة الإعراب، تحقيق ، محمد حسن إسماعيل،، وأحمد رشدي شحاتة عامر، دار الكتب العلميّة (بيروت لبنان ط1، 2000م، ج1، ص6.

(42)المقتضب، المبرّد، تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، ج1 ص192.

(43) العين، ج1 ص42.

(44)الكتاب، ج 2 ص404.

(45)المقتضب، المبرّد، ج1 ص194.

(46)المقتضب، المبرّد، تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، ج1 ص192-194.

(47)المصدر نفسه، ج1 ص 192.

(48)الكتاب لسيبويه، ج 4، ص433.

(49) ينظر: المقتضب، المبرّد، ج1 ص 328 وما بعدها.

(50)الممتع في التصريف لابن عصفور، ج2، ص663.

(51)المقتضب، المبرّد، ج1، ص328.

(52)المصدر نفسه، ج1 ص194.

(53)المصدر نفسه، ج1 ص195.

(54)الكتاب لسيبويه، ج 4، ص432.

(55)الكتاب لسيبويه، ج 4، ص433.

(56)ينظر: المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدامى في ضوء علم اللغة المعاصر لعبد القادر علي المرعي الخليل، جامعة مؤتة ط1، عمان 1993، ص48.

(57) ينظر: المقتضب، المبرّد، ج1 ص 328 وما بعدها.

(58) ينظر: الكتاب لسيبويه، ج 4، ص433.

(59) ينظر: المقتضب، المبرّد، ج1 ص 328.

(60)المقتضب، المبرّد ، ج1 ص 330.

(61) نفسه، ج1 ص 331.

(62)نفسه،ج1 ص 331.

(63)نفسه، ج1 ص 331.

(64)نفسه، ج1 ص 332.

(65)الكتاب لسيبويه، ج 4، ص434-435.

(66)المقتضب، المبرّد، ج2، ص292.

(67)المقتضب، المبرّد ، ج2، ص292.

(68)نفسه، ج1 ص 331.

(69) ينظر: نفسه، ج 1 ص 08 (باب الفاعل) ، وأصول تراثية في اللسانيات الحديثة، كريم زكي حسام الدّين ط3،2001 م ص205 .

(70) ينظر نفسه ، ص 139-144-250.

(71)نفسه، ج1 ص 199.

(72)المقتضب، المبرّد ، ج1 ص 199.

(73)نفسه، ج1 ص 199.

(74)نفسه، ج1 ص199.

(75)نفسه، ج1 ص 200.

(76)نفسه، ج1 ص201.

(77)نفسه، ج1 ص 201.

(78)المقتضب، المبرّد ، ج1 ص 201.

(79)نفسه، ج1 ص 202.

(80)المقتضب، المبرّد، ج 2ص 231.

(81)نفسه، ج 1، ص 127.

(82) ينظر: المدارس النحوية لشوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط1، (د.ت)، ص127.

(83)المقتضب، المبرّد، ج 3 ص36 وما بعدها.

(84) نفسه ج 2 ص81 وما بعدها.

(85) نفسه ج 1 ص31.

(86)المدارس النّحويّة ، شوقي ضيف، ص132 وما بعدها.

(87) ينظر: الأشباه والنّظائر في النحو للسّيوطي، تحقيق عبد العال سالم مكرم ، مؤسّسة الرّسالة ،بيروت ط1، 1985م، ج5 ص124 .